

باييك الغرب الجزائري خلال العهد العثماني وتطوره فيما بين 1563 - 1792

أ.ة: خروبي فتيحة

جامعة وهران

مقدمة

لقد تميز باييك الغرب في القطر الجزائري على اختلاف تداول عواصمه من مازونة إلى مستغانم ثم معسكر فوهران على بقية الباياليك الأخرى (دارالسلطان، باييك الشرق، باييك التيطري) بكونه أرض جهاد دائم قرابة ثلاثة قرون، فالخطر الإسباني من جهة وتمرد القبائل على السلطة العثمانية أو المتحالفة مع الإسبان من جهة أخرى؛ لذا كان النظام بباييك الغرب نظاما عسكريا أكثر منه سياسيا، فما من باي أو داي يتعين في الغرب الجزائري إلا ويكون شعاره تحرير الثغر الجماني (وهران والمرسى الكبير) من الاحتلال الإسباني .

لقد كان باييك الغرب محل أطماع أجنبية تمثلت في الرغبة التوسعية لسلطين المغرب من جهة والوجود الإسباني من جهة أخرى منذ مطلع القرن السادس عشر إلى غاية نهاية القرن الثامن إضافة إلى الإطماع الإسبانية، عرف الباييك هجومات سلطين المغرب المتتالية خلال القرن السابع عشر ومطلع القرن الثامن عشر مما جعل بايات باييك الغرب يتفانون في ردع وإخراج العناصر الأجنبية وفعلا نجح الباي مصطفى أبو الشلاغم في مطلع القرن الثامن عشر سنة 1708 من فتح وهران (الفتح الأول) مما أجبر القائد الإسباني يغادر وهران في

21 جانفي 1708 نحو اسبانيا وأصبحت مدينة وهران عاصمة للبايلك واستمر الوضع إلى غاية سنة 1732؛ حيث عاد المحتل الاسباني إلى المنطقة واحتلت العاصمة وهران من جديد واستمر الوضع إلى غاية مجيء الباي محمد الكبير الذي وضع حدا للتواجد الاسباني وتم التحرير الثاني لمدينة وهران على اثر اتفاقية 12 سبتمبر 1971م، واخضع البايلك لسلطته الكاملة ابتداء من سنة 1792، وفرض السيادة الكاملة على البايلك. والسؤال الذي يطرح نفسه في ظل هذه الظروف هو: كيفية تأسيس بايلك الغرب الجزائري وظروف تأسيسه .

1- الإطار الجغرافي لبايلك الغرب الجزائري

إن ما يسمى بايلك الغرب⁽¹⁾ هو ما يعادل بالتقريب القطاع الوهراني⁽²⁾ حاليا، وتمتد رقعته من الحدود المغربية بالضبط من وادي ملوية غربا إلى دار سلطان وبايلك التيطري شرقا ومن سواحل البحر الأبيض شمالا إلى الصحراء جنوبا⁽³⁾، ويجدر بنا الذكر أن ساحل بايلك الغرب يمتد على مسافة 270 كلم ويضم مدن ساحلية مثل وهران مستغانم، أرزيو، بني صاف وأخرى داخلية هامة أبرزها تلمسان وقلعة بني راشد ومعسكر ومازونة وتيهرت⁽⁴⁾ ولقد بلغ بايلك الغرب أقصى اتساعه في عهد الباي محمد الكبير. ويأتي في المرتبة الثانية من حيث المساحة بعد بايلك التيطري.

ويتكون بايلك الغرب الجزائري من مجموعة من المدن الداخلية والساحلية ويتوفر على أحواز وفحوص هامة وأراضي زراعية واسعة وخصبة صالحة لمختلف أنواع المزروعات. ويعتبر أيضا ملتقى ونقطة عبور لأهم الطرق التجارية الممتدة من إفريقيا إلى أوروبا، مما ساعد على تنشيط الحياة الاقتصادية والتجارية كما يتوفر على كل الأسس السامحة للاستقرار البشري والنمو الاقتصادي وبرغم من

موقعها الاستراتيجي الهام إلا أنها كانت عرضة للاستعمار بمختلف أنواعه .

إن الموقع الطبيعي الممتاز الذي تتصف به مازونة ووقوعها بمنطقة جبال الظهرة وإشرافها على مجموعة من السهول الخصبة جعلها تتخذ كأول عاصمة للبايلك، أما العاصمة الثانية للبايلك (معسكر) فتتميز بتوسطها فحوصا واحوازا هامة جعلها تتحكم في المسالك التجارية التي تربطها بمختلف حواضر البايك كما تحيط بها سهولا من أخصب سهول الجزائر، كما تشكل العاصمة وهران موقع استراتيجي ممتاز في منطقة الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط حيث قال فيها ابن حوقل «...ولمدينة وهران مرسى في غاية السلامة والصون من كل ريح وما أظن له مثيلا في جميع نواحي البربر سوى مرسى موسى فقد اكتنفته الجبال وله مدخل امن...»⁽⁵⁾ أما مدينة مستغانم فتقع في منطقة محمية من البحر الأبيض المتوسط ومقابلة لفرنسا واسبانيا وتحيط بها غابات وبساتين وأحوازا خصبة أهلها لتكون عاصمة للبايلك.

2- تأسيس بايلك الغرب الجزائري

يعود تاريخ تأسيس البايك كتقسيم إداري وسياسي إلى النصف الأول من القرن 16 حيث تم تقسيم الجزائر إلى أربعة مقاطعات وأقاليم إدارية وكانت كل مقاطعة تعرف بالبايلك⁽⁶⁾ وقد تم التقسيم الإداري للجزائر عبر مراحل حيث وضع خير الدين باشا عام(1518م) نظاما متواضعا لإيالة الجزائر وقسمها إلى ثلاثة أقسام هي.

قسم الوسط تحت سلطة خير الدين باشا.

● قسم الغرب مركزه شرشال .

• قسم الشرق مركزه دلس⁽⁷⁾.

وبقي الأمر هكذا حتى تولى ابنه حسن بن خير الدين (باي لارباي) فقام باستكمال ذلك التقسيم ووضع نظام إداري محكم وقسم الجزائر إلى أربعة بياليك⁽⁸⁾ هي:

• بايلك الوسط (دار السلطان) عاصمته الجزائر العاصمة.

• بايلك التيطرى عاصمته المدية أسس عام 1540م.⁽⁹⁾

• بايلك الشرق وعاصمته قسنطينة وأسس عام 1565م.⁽¹⁰⁾

• بايلك الغرب أسس عام 1563م حيث كانت عاصمته مازونة ثم معسكر ثم وهران وبعد ذلك انتقلت العاصمة إلى مستغانم لتعود إلى معسكر من جديد ثم إلى وهران بعد تحريرها الثاني من أيدي الإسبان عام (1792م) على يد الباي محمد الكبير⁽¹¹⁾

ولقد امتد الحكم العثماني إلى بايلك الغرب عام (922هـ) 1516م عندما توجه "عروج بربروس" إلى مدينة تنس لإخماد إحدى الثورات التي قامت بها قبائل الأمازيغ بقيادة أميرها حميدة العبد ومن ثم زحف "عروج" إلى تلمسان ودخل قلعة المشور مع حرسه واعتقل "أبا زيان" حيث شنقه في رواق القصر وكان لأبنائه نفس المصير حيث كبلهم بالأغلال مع والدهم ولم يكتف بذلك بل كان يرغب في القضاء على آخر عضو من أفراد العائلة الزيانية في تلمسان حيث اعتقل سبعين فردا منهم ورماهم في الحوض الكبير للمدينة ولقد كان لهذه المجزرة وقعا كبيرا على السكان⁽¹²⁾ إلا أن العثمانيون قد واجهوا عدة صعوبات في بداية حكمهم في بايلك الغرب نظرا لشدة المعارضة المحلية المتمثلة في الزيانيين من جهة والتحرش الإسباني من جهة أخرى⁽¹³⁾ بالرغم من

شدة الصراع فإن العثمانيين قد توصلوا إلى تثبيت بعض الحاميات العسكرية في بعض المدن الغربية مثل تنس، مستغانم، مازونة وحققوا عدة انتصارات على حساب قبائل الأمحال المسيطرة على الجهة الغربية من البلاد خلال الحكم الزياني،⁽¹⁴⁾ وعلى ما يبدو أن حسن بن خير الدين باشا كان أول من وضع الأسس الأولى للإدارة العثمانية ببايلك الغرب الجزائري وقبل أن يعود من حصار وهران متجها إلى مدينة الجزائر سنة 968 هـ/1563م⁽¹⁵⁾ شن هجمات مكثفة تجاه المرسى الكبير ووهران ومستغانم سنة 1556م والتي باءت بالفشل ذريع، وعلى إثر هذا الفشل ترك حسن بن خير الدين حامية عسكرية في مازونة وعين ابن خديجة بايا على البايك الغربي وكان ذلك سنة 1963م وأمده بسند من الأموال والجنود بـ 80 خيمة و1600 جندي⁽¹⁶⁾ وقد تولى حكم البايك الغربي في هذه الفترة بايان، أحدهما استقر بـ مازونة والآخر بتلمسان.

ويعود اختيار مدينة مازونة كعاصمة للبايلك لتيقن "حسن بن خير الدين" من عدم مجيء الإسبان في طلبه، كونها تحتل موقعا إستراتيجيا هاما وتتوسط القبائل ما بين مستغانم وتنس وذات موقع حصين ومنيع⁽¹⁷⁾. وقد ساهمت مازونة بعدة حملات عسكرية ضد الاحتلال الإسباني لوهران طيلة الفترة الممتدة من 1563م إلى غاية 1791م حيث توفي آخر باياتها، الباي شعبان الزناقي وهو محاصر لوهران سنة 1696م...⁽¹⁸⁾.

وفي هذا الصدد يذكر الأغا بن عودة المزاري مايلي: ... مازونة باياتها حسن بن خير الدين باشا تم ابن خديجة ثم صواف ومات مسموما من سم سقته له زوجته ثم الباي السايح الذي مارس الحكم

إحدى عشرة سنة ثم ساعد ثم محمد بن عيسى وهو السادس عشر من باياتها ثم شعبان الزناقي الذي لقي حتفه في صراع وهران⁽¹⁹⁾

لقد استمرت مازونة عاصمة لبايك الغرب الجزائري من سنة 1563م إلى غاية 1700م وخلال هذه المرحلة عرفت المدينة انتعاشا اقتصاديا وثقافيا هاما، حيث أن دور مدينة مازونة في الحركة الثقافية على مستوى البايك والمغرب العربي بصفة عامة كان له انعكاسات هامة وتأثيرات كبيرة كما استفادت المدينة من المراكز الثقافية الأخرى سواء على المستوى المحلي والخارجي، هذا الشعاع الثقافي الذي عرفته المدينة يعكس ازدهارا ونموا اقتصاديا وبروز فئات اجتماعية كان لها دور فعال في تنشيط الحياة الاقتصادية والنهوض بالحياة الثقافية.⁽²⁰⁾

سنة (1098 هـ / 1686 م) تولى أبو الشلاغم ابن يوسف ابن إسحاق المسراتي بايا على مازونة وتلمسان، وتم توحيد القسمين فهو أول من جمعت له الإيالة الغربية.⁽²¹⁾

وفي عام 1701م نقل مركز البايك من مازونة إلى قلعة بني راشد⁽²²⁾ التي أصبحت قاعدة لحكمه ومعسكر عاصمة لبايك الغرب.

وقد اختيرت قلعة بني راشد كقاعدة خلفية للباييك لأنها مدينة تتميز بالحصانة والمناعة مبنية على هضبة بين جبلين ومحاطة بأسوار عالية مما يصعب وصول العدو إليها،⁽²³⁾ ولقد كان الإسبان في فترة احتلالهم لمدينة وهران يقومون بالتزويد جيوشهم بالمؤونة الضرورية من قلعة بني راشد، وقد استمات خير الدين عروج في الدفاع عنها خلال احتلالها من قبل الإسبان سنة 1517م⁽²⁴⁾ واتخذت معسكر عاصمة لبايك الغرب لمدة تقارب القرن من الزمان حيث امتدت من

حكم مصطفى أبو الشلاغم سنة 1701م إلى غاية وفاة آخر باياتها فاتح وهران محمد الكبير سنة 1792م، ولقد شهدت مدينة معسكر انتعاشا اقتصاديا وتجاريا اثر انتقال مقر البايلك من مازونة إلى معسكر، وبلغت ذروة مجدها في أيام الباي محمد الكبير وقد تعددت الأسباب بشأن إختيار معسكر كعاصمة للبايلك :

- كونها محطة تتحكم في المسلك الطبيعي الذي يشكله وادي الحمام والذي يربط بين الجهات الساحلية والأقاليم الداخلية كما أنها مركز مهم على الطريق الرئيسي بين قلعة بني راشد وتلمسان، الأمر الذي أهلها لتكون سوقا لمنتجات السودان ومستودعا لبضائع فاس وملتقى لتجارة الغرب الجزائري.

- وكذا لمناعة وحصانة موقعها فهي مقامة على منحدرات جبال بني شقران على ارتفاع 600م بمحاذاة وادي تودمان وهذا ما جعلها في مأمن من الخطر الإسباني الذي كان يهدد وهران وضواحيها وأبعد عنها التحرشات المغربية التي كانت تستهدف تلمسان ولهذا أصبحت تعرف لدى السكان بشارب الريح.

- وجود معسكر بمنطقة غنية بإنتاجها الزراعي ممثلا في مقادير وفيرة من الحبوب من سهل غريس وكميات كبيرة من الأصواف والجلود من قلعة بني راشد بالإضافة إلى صناعة الأسلحة النارية والصابون والشمع والسروج والبرانيس والزرابي الفاخرة وغيرها، وبذلك أصبحت معسكر سوقا رئيسية لقبائل بني راشد ومحطة للعشائر الكبرى، كبني عامر وبني شقران والحشم والشراقة وغيرهم⁽²⁵⁾. ولكن الأهم من كل هذا أن مدينة معسكر اختيرت لتحقيق أهداف عسكرية المتمثلة في القضاء على الاحتلال الإسباني وتحرير مدينة وهران من هذا الاستعمار الغاشم.

ويتجلى دور معسكر السياسي والعسكري عندما استقر بها العثمانيون وجعلوها دار إماراة. ولقد كان ملوك تلمسان من بني زيان وملوك المغرب الأقصى يشنون غارات متكررة على إقليم بني راشد ومعسكر لتهديد الوجود العثماني بها مما جعل العثمانيين يقومون بشن حملات عسكرية لتأديبهم ووصلوا إلى غاية إقليم أنكاد بالقرب من مدينة وجدة ورسموا الحدود الفاصلة بينهم وبين ملوك فاس⁽²⁶⁾ ومن هنا يتضح لنا دور معسكر في رسم الحدود الفاصلة بين الجزائر والمغرب الأقصى والتي نراها عليها الآن⁽²⁷⁾.

وقد تم تداول عدة بايات على حكم مدينة معسكر اهمهم مصطفى أبو الشلاغم، قايد الذهب، محمد العجمي، حسن إبراهيم حجي خليل ومحمد الكبير فاتح وهران وينفرد هذا الأخير عن بقية البايات بمجهوداته الجبارة التي قام بها على مستوى البايك من خدمات جلييلة في المجال العسكري والإقتصادي والثقافي⁽²⁸⁾ ولقد عرفت معسكر أوج إزدهارها في أواخر العهد العثماني وحظيت بشهرة واسعة في كامل بلاد المغرب العربي بفضل بروز علمائها ومشايخها في جميع مجالات العلم والمعرفة أمثال "أبي راس الناصري" وله مؤلفات عديدة، الشيخ أبو مهدي بن موسى التوجيني، العلامة محمد بن الأعرج الغريسي، الشيخ عبد القادر بن عبد الله المشرقي وغيرهم من ألمع الشخصيات⁽²⁹⁾.

إلا أن معسكر لم تبقى عاصمة لباييك الغرب فإبتداء من 1708 م، حيث انتقل مقر حكم البايك من معسكر إلى وهران على إثر الفتح الأول لها وعين مصطفى أبو الشلاغم بايا عليها⁽³⁰⁾. وقد شرع أبو الشلاغم في محاصرته لمدينة وهران المحتلة من قبل الإسبان الذين احتلوا المرسي الكبير سنة 1505 م ثم وهران 1509 م وبذلك أصبحت وهران قلعة إسبانية (peresidios). وعلى إثر الأوضاع الأمنية

والاجتماعية والاقتصادية المزرية التي تزايدت يوما بعد يوم أدت بالسكان إلى طلب العون من الأتراك لحماية مقدساتهم الإسلامية فقام أبو الشلاغم عام 1704 م بمحاصرة وهران لمدة أربعة سنوات حيث ألحق هزيمة كبيرة بالإسبان وكذلك بالقبائل المتحالفة معهم كقبائل بني عامر وكريشتل، وعلى إثر الهزيمة التي من بها الإسبان تم الإستلاء على وهران سنة 1708 م إلى غاية 1732 م ونقل مقر العاصمة من معسكر إلى وهران،⁽³¹⁾ ويعتبر عهد الباي أبو الشلاغم أول فترة تاريخية يعرف فيها البايلك تحرره التام لجميع أراضيه وذلك منذ مطلع القرن السادس عشر تاريخ احتلال وهران من طرف الإسبان، حيث عرفت وهران في هذه الفترة نموا ديمغرافيا كما عرفت التجارة قدوم تجار أجنب ساعدو على تنشيطها. وشرع الباي في تجديد عمرائها وأصبحت وهران قبلة للقادمين إليها من جميع أنحاء البايلك، وعاشت المدينة بين أحضان الإسلام والمسلمين ولكن سرعان ماغتصبت من جديد من طرف الاسبان عام 1732.⁽³²⁾

استمر حكم الباي "أبو الشلاغم" على البايلك بكامله إلى غاية 1732 م حيث قام الإسبان بهجوم ثاني على وهران ليتكرر سيناريو الصراع بين الأسبان بوهران وبايات الغرب الذين عجزوا عن تحرير الثغرين (وهران والمرسى الكبير)، ونتيجة لهذا الهجوم فر الباي أبو الشلاغم إلى مستغانم وأصبحت هذه الأخيرة عاصمة لبايلك الغرب لمدة خمس سنوات (1732م-1737م)⁽³³⁾، ويرجع مارسال بودان (Marcel Bodin)، إختيار مستغانم بدلا من معسكر التي كانت عاصمة من قبل إلى حاجته للتزويد بالعتاد والسلاح عبر الميناء من طرف الإنجليز كما كان يفعل ذلك في ميناء وهران⁽³⁴⁾، وهو مايفسر نيته في إعادة استرجاع المدينة ثانية ومن خلال مدينة مستغانم قام الباي أبو

الشلغم بعدة محاولات طويلة فترة حكمه لكنها باءت كلها بالفشل وتوفي بمستغانم سنة (1138هـ/1737م)⁽³⁵⁾، فخلفه ابنه يوسف بن مصطفى، حيث أعاد هذا الأخير مقر اليايلك من مستغانم إلى مدينة معسكر من جديد سنة 1737 م بأمر من الباشا "تساكالالي" من تساكالا بإقليم الأناضول حيث أعطى أمر ليوسف بنقل مقر اليايلك إلى معسكر مرة أخرى، إلا أن الباي يوسف لم يكن في مستوى المسؤولية الملقاة على عاتقه ولم يتصف بقوة وفضائل أبيه فقد عرف عهده بعض الاضطرابات حيث قام كراغلة وحضر مدينة تلمسان بتمرد شديد وطرده القائد المعين من طرف السلطات التركية.⁽³⁶⁾

وقد تميزت سياسة حكم الأتراك في بايلك الغرب الجزائري خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر بعدم التدخل في شؤون السكان الداخلية واكتفوا بالتعامل مع كبار شيوخ نيابة عن السكان، ولكن ابتداء من أواخر القرن 17م انتهج الحكام الأتراك سياسة رامية على مد النفوذ إلى مساحات واسعة امتدت إلى غاية الجنوب الجزائري معتمدين في ذلك على القوة والحملات العسكرية.

وهكذا بقي بايلك الغرب تحت الهيمنة الإسبانية من جديد حيث بقيت وهران تحت حصار دائم ومعارك شديدة دامت أكثر من 60 عاما فقد تغيرت معالمها وأصبحت عبارة عن مدينة ذات طراز مسيحي وفشلت كل محاولات بايات الجزائر في استرجاعها وإعادةها لأصالتها العربية الإسلامية.

ولقد عرف بايلك الغرب العديد من البايات الذين سعوا جاهدين لتحرير العاصمة السابقة للبايلك إلا أن محاولاتهم لم تجدي نفعا وباءت كلها بالفشل إلى غاية مجيء الباي محمد الكبير عام 1778م الذي تولى قيادة بايلك الغرب بعد وفاة الباي "خليل" واستقر

بمعسكر، وقد أكثر من شن الغارات على الأسبان وجعل من تحرير
وهران قضيته الأولى فقام بعدة هجومات عام 1780م ثم قام
بحصارها عام 1784م وأعاد لوهران هيبتها⁽³⁷⁾. وهذه المحاولات
المتكررة لتحرير هذا القطاع تبرهن لنا رغبة بايات الغرب في إخراج
الاحتلال الاسباني ووقف محاولات .

بعد وفاة الباي "يوسف ابن مصطفى أبو الشلاغم" خلفه
"محي الدين المسراتي" إلا أنه تنازل عن الحكم لابنه "مصطفى الأحمر
المسراتي" ولم يلبث هذا الباي في الحكم حتى قتل من قبل عائلة
زوجته بعد حكم دام عشر سنوات 1738م إلى غاية 1748م ودفن
بمدينة مستغانم بقبة الباي "مصطفى أبو الشلاغم" وقد أصبحت
أملكه المتمثلة في حدائق ومحلات أوقافا لصالح مكة والمدينة
المنورة⁽³⁸⁾.

بعد وفاة "مصطفى الأحمر المسراتي" خلفه أخاه "قايد الذهب"
ولقب بذلك لكثرة سخائه وعطائه للناس وشهد البايلك خلال فترة
حكمه إستقرارا سياسيا دام ثلاث سنوات 1748-1751م ونظرا لشدة
المعارضة من قبل عائلة المسراتي فرقايد الذهب من مدينة معسكر
طالبها اللجوء إلى الإسبان لمدينة وهران حيث استقبلوه بحفاوة
وومنحوه قصرا للإقامة ومجموعة من العبيد والخيل والأسلحة⁽³⁹⁾،
بعد هذا الباي عين "محمد العجمي" بايا على معسكر وبقي في الحكم
تسعة أعوام ثم قتل وجاء الباي "الحاج عثمان" الملقب بعصمان ولقد
كان سابقا حاكما على تلمسان حيث تعرض لإهانة شديدة من طرف
سكان تلمسان وبعد توليه في المرة الثانية الحكم على جميع بايلك
الغرب مكر بهم مكرًا كبيرا وبقي الباي عصمان في الحكم لمدة تسعة
عشر عاما وتوفي سنة 1183 هـ 1771 م ودفن بمعسكر ومن من

مخلفاته الجامع الأعظم بمعسكر⁽⁴⁰⁾ وبعد وفاة الحاج عصمان خلفه "حسن باي" سنة 1771م وبقي في الحكم مدة ثلاثة سنوات إلى غاية 1774م ونتيجة قيام هذا الباي بتصرفات أغضبت داي الجزائر أثناء تأديته لعملية إيصال الدنوش إلى العاصمة جعله يخشى على نفسه وخوفا من الانتقام فر إلى تلمسان ثم إلى وهران ثم إلى إسطنبول⁽⁴¹⁾ سنة 1734م تولى إبراهيم الملياني الحكم على بايلك الغرب حيث عرف هذا الأخير في عهده مرحلة من الهدوء وقد اتصف هذا الباي بحبه للعلم والفقهاء حيث رتب العلماء حسب رتبهم وأكثر من مجالستهم واستمر حكمه مدة عشرة سنوات ومات بمعسكر سنة 1783م ودفن بقبة الحاج عصمان⁽⁴²⁾.

وبالرغم من المحاولات العديدة التي قام بها كل هؤلاء البايات وغيرهم إلا أنهم لم يحرروا بايلك الغرب من الاحتلال الإسباني إلى غاية تولى محمد الكبير بايا لبائلك الغرب سنة 1779م وهكذا تحققت رغبة السكان في توليه بايا عليهم.

إضافة إلى الصعوبات التي واجهت عهد محمد الكبير الممثلة في المجاعات والأمراض خاصة طاعون 1786م والكوارث الطبيعية المتمثلة في الزلازل إلا أنه بذل جهودا خلدت اسمه وقبل أن نتعرض للإنجازات التي قام بها الباي محمد الكبير صار لزاما علينا التعرف به.

الباي محمد الكبير هو محمد بن عثمان بن إبراهيم الكردي الملقب بالكبير⁽⁴³⁾ وأبو الفتوحات والمجاهد وغيرها من الألقاب الأخرى، ولد بمليانة سنة 1734م والده عثمان الكردي والذي كان بايا على التيطري وأمه زائدة كانت جارية ببلاط مولاي إسماعيل ملك المغرب الأقصى ولما قتل عثمان الكردي حظي محمد الكبير وأسرته برعاية صديق والده الباي إبراهيم الملياني ولقد كان محمد الكبير محبوبا لدى الباي

إبراهيم بخصاله الحميدة وازداد قريبا له بالمصاهرة وهكذا أخذ يتدرج في الحكم من قائد لقبائل فليتيه بزمورة من 1765م، 1769م إلى خليفة للقطاع الشرقي للبايلك الغربي من 1769م، 1779م إلى باي للغرب الجزائري من 1779م، 1797م، توفي في سنة 1799م بعدما ترك وراءه العديد من الإنجازات على مختلف الأصعدة وأحسن مثال على بناءه الجامع الكبير والمدرسة المحمدية بمعسكر وغيرها من الإنجازات التي لا تعد ولا تحصى.⁽⁴⁴⁾

لقد قام الباي محمد الكبير بأعمال هامة مجدت اسمه وعلى رأسها استرجاع مدينة وهران وتحريرها حيث قام بتكثيف هجوماته على الإسبان وتمكن في سنة 1784م من قطع مجرى الماء الذي كان يشق المدينة وفي 23 جويلية 1791م حاصر محمد الكبير وهران حيث تمكن من تحطيم أسوار المدينة والإستلاء على حصن سان فيليب*، وحصون سان أندري* مما ألحق بالجيش الإسباني خسائر فادحة، وعلى إثر هذا الفشل الذريع الذي لحق بهم طلب الإسبان الهدنة من الباي محمد الكبير من أجل سحب الجرحى والقتلى من ساحة المعركة ثم استأنف المجاهدون القتال بقيادة محمد ابن عثمان وكان عدد مقاتلي الجيش الإسباني 1526مقاتل، كما تلقوا مددا كبيرا من إسبانيا وقوامه 7000 جندي بينما لم يستجيب داي الجزائر في تقديم المدد للباي محمد الكبير خوفا من طموحاته الكبيرة وحصوله على شهرة واسعة بين السكان ولقد استمرت الهجمات ضد الإسبان طوال ربيع وصيف 1791م وظل المجاهدون يتقدمون رغم الدفاع الإسباني الشديد واحتدمت المعركة بين الطرفين وفي يوم 5 جويلية 1791م تقدمت إسبانيا بطلب الصلح من الباي محمد الكبير بعد أن ضاع كل أملهم في الحفاظ على المدينة إلا أن داي الجزائر حسن باشا رفض

ذلك،⁽⁴⁵⁾ وواصل محمد الكبير في شن هجوماته على إسبانيا فتساقطت حصون وهران الواحدة تلو الأخرى أبرزها حصن "مرجاجو" الذي بني في أواسط القرن 16م وقد طلب الإسبان القبائل المجاورة لبنائه ويسمى أيضا برج سانتاكروز وحصن العيون (برج القديس فيلب) والبرج الأحمر ويسمى أيضا برج "روزالكزار" بناه السلطان المريني "أبو الحسن" عام 1347 وهو من أحسن الأبراج دفاعا، وإستمر القتال حتى فر الإسبان من ساحة المعركة فلم يكن باستطاعتهم رد هجوم الباي محمد الكبير⁽⁴⁶⁾ نظرا للحالة السيئة والأوضاع المتدهورة التي كانوا عليها حيث عانوا من نقص حاد في المؤونة لجنودهم ومعنوياتهم المنحطة باعتبار طول مدة الحصار، إضافة إلى ارتفاع تكاليف الحرب التي كلفت خزينة إسبانيا ومما زاد من تعقد الأمور هو وقع الزلازل الذي أصاب وهران سنة 1790م الذي أصاب العديد من الحصون،⁽⁴⁷⁾ كل هذه الأمور إلى توقيع معاهدة الصلح حيث توصل الداوي حسين باشا بالجزائر العاصمة إلى عقد الصلح عن طريق باي وهران محمد الكبير يوم 17 ديسمبر 1791م،⁽⁴⁸⁾ وقد تضمن الصلح عدة شروط كان منها:

* إنسحاب الإسبان من وهران والمناطق المحتلة وجميع الحصون دون شروط.

* ترك الإسبان كل الأشياء التي كانت موجودة في وهران خلال حكم مصطفى أبو الشلاغم.

* إرجاع كل الأسلحة من القنابل، المدافع والذخيرة.

* أن يدفع الإسبان لدار السلطان كل سنة مبلغ 12 ألف سلطاني و120 ألف فرنك على أن يكون مقسما على ست فترات ألفي سلطان كل شهرين.

* إرجاع الأسرى الإسبانيين الموجودين بوهران.

* أن يبقى الإسبان في وهران أربعة أشهر من تاريخ إمضاء الصلح.

* تحمل سفينة إسبانية بصفة رسمية إلى إسطنبول مفتاحين ذهبيين رمز إستسلام وهران مع جرتين من ماء عيون وهران للسلطان العثماني كبشرى للفتح.

وفي مقابل ذلك تقبل الجزائر مايلي:

* حصول إسبانيا على مركز تجاري في الغزوات.

* أن تبتاع من البلاد الجزائرية ثلاثة آلاف كيلة من القمح سنويا.

* أن تباشر صيد المرجان على الساحل الغربي الجزائري.⁽⁴⁹⁾

وعلى إثر هذا النجاح العظيم الذي حققه الباي محمد الكبير تم نقل مقر عاصمة البايلك من معسكر إلى وهران سنة 24 فيفري 1792م حسب ما تظهره اللوحة الرخامية التي تعلو الباب الرئيسي للقصر الأحمر وقام بإرسال مفاتيحها الذهبية الثلاثة إلى السلطان سليم الثاني بتركيا عن طريق الجزائر والذي منحه ريشة النصر ليأمر بعد ذلك الباي محمد الكبير بهدم الحصون التي كانت ملجأ للإسبان كبرج مرجاجو وبرج فرنادو وهكذا قضى الباي محمد الكبير أيامه في ترميم ما أتلف في وهران وتوسيعها وتشيد فيها المسجد الكبير (جامع الباشا)⁽⁵⁰⁾ تذكارا لذلك الفتح المبين، وتذكر المصادر أن الداوي حسين استقبل الباي محمد الكبير وقلده الريشة الذهبية وقال له: "أوكلك

هذه المدينة الثمينة، وذلك لما أظهرته من الشجاعة ونصرة الإسلام، واني قد عينت ابنك عثمان خليفة لك على بايلك الغرب وابنك محمد قائدا على فليته" (51).

الخاتمة

تأسس بايلك الغرب سنة 1663م، وتولى حكمه إثنان من البايات، أحدهما بمازونة والآخر بمدينة تلمسان، وفي عام 1706 م تم توحيد القسمين فأصبح يعين عليه باي واحد، وجعلت قاعدة حكمه قلعة بني راشد ثم مدينة معسكر ثم مدينة وهران بين (1708 – 1732م)، وهي فترة حكم مصطفى أبو الشلاغم، وبعد الاحتلال الإسباني الثاني لوهران، انتقل مقر البايك من وهران إلى مدينة مستغانم لمدة خمس سنوات ما بين (1732 – 1737)، ليصبح مرة أخرى بمعسكر إلى أن تم تحرير وهران من أيدي الإسبان سنة 1792 على يد محمد بن عثمان الكبير.

ويمكننا القول أن مدن بايلك الغرب قد تميزت بنوع من التوافق الطبيعي والتاريخي، وهذا ما جعل الإطار العام يتصف بنوع من التكامل.

ويمكننا القول أيضا أن الفضل في تحرير وهران من الإسبان يعود إلى مدينة معسكر، حيث كانت قاعدة خلفية لتنظيم الجهاد، لم يقتصر دور بايلك الغرب على تقديم يد المساعدة والعون في رد الإعتداءات الإسبانية، بل تعداها إلى ترسيم الحدود السياسية التي نراها اليوم من الجزائر والمغرب الأقصى حيث أجبر بايات الجزائر سلاطين المغرب على التراجع إلى مدينة وجدة ورسم الحدود بينهما بين نهاية القرن 17 م

ومطلع القرن 18م، وبذلك وضعوا حدا فاصلا لتوسعاتهم على حساب بابلك الغرب الجزائري.

إن بابلك الغرب في العهد العثماني لم يعرف الاستقرار وكان الوضع متدهورا بسبب سياسة الحكم العثماني من جهة وتعرضه للأطماع المغربية التي حاولت إبعاد الخطر العثماني والتوسع في نواحي تلمسان والاحتلال الاسباني من جهة أخرى .

الهوامش

¹- "بابلك" هو اسم منطقة جغرافية إدارية، حيث قسمت الجزائر إلى أربع بياليك أو مقاطعات أو أقاليم هي (بابلك الوسط، وبابلك الشرق وبابلك الغرب والتيطري). أنظر:

- مصطفى أحمد بن حموش، فقه العمران الإسلامي للأرشيف العثماني الجزائري (956هـ، 1246هـ) 1549م، 1830م، ط. دار البحوث والدراسات الإسلامية للنشر، دبي، 200. ص 268.

2- فتيحة الواليش: الحياة الحضرية في بابلك الغرب الجزائري خلال القرن 18م، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، الجزائر، ص ص 10-20. وأنظر:

TINTHION (Robret); l'oranie sa géographie son histoire ses centres vitaux, Oran, Fouqué, 1952- p35.

3- صالح عباد، الجزائر خلال الحكم التركي (1514 م 1883م)، دارهومة للطباعة والنشر الجزائر 2005، ص 292. طالع:

-Aramburu (j); oran et l'ouest algérien au 18siècle; présentation et traduction de korso et Epalza; Alger . B-N; 1978; p 9.

4-SARI (Djillali); les villes précoloniales d l'Algerie accidentale. alger. 1974. P336.

5- ابن حوقل؛ صورة الأرض، ط2، مطبعة برلين ليدن للنشر والتوزيع، هولندا، 1938، ص 77.

6- صالح عباد: المرجع السابق، ص 281.

7- يحي بوعزيز؛ وهران عبر التاريخ، المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع، الرغاية، الجزائر، 1985، ص 76.

8- الأغا بن عودة المزابي؛ المصدر السابق، ص 274، 275، وأنظر:

- Esterhazy (Walissn); Domination turque dans l'ancienne Régence d'Alger . Paris. 1840 .P 165.

9- أحمد الشريف الزهار، مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار، نقيب أشرف الجزائر، تقديم وتعليق أحمد توفيق المدني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1979، ص 47، 48.

10- ابن العطار أحمد بن المبارك، تاريخ قسنطينة، تحقيق رابح بونار، منشورات المكتبة العصرية للنشر والتوزيع، بيروت، 1971، ص 46.

- 11- الأغا بن عودة المازري، المصدر السابق، ص 274، 275. وانظر:
- أحمد سليمان: النظام السياسي الجزائري في العهد العثماني، مطبعة دحلب للطبع والنشر، ص 38.
- 12 - عدة بن داهة: معسكر عبر التاريخ، دار الخلدونية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2005 ص 51 وأنظر.
- Esterhazy(Wilisn) ; op-cit, p 126.
- 13- مجهول: غزوات عروج وخير الدين، تحقيق وتصحيح عبد القادر نور الدين، مطبعة ردوسي قدور للنشر والتوزيع، 1934، ص 79.
- 14- Esterhazy ; op-cit . P157.
- 15 - Esterhazy (W) ; ibed. p157.
- 16- محمد بن يوسف الزياني؛ دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تقديم وتعليق المهدي البوعبدلي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1979 ص 192 .
- 17- مارمول كاريغال؛ المصدر السابق، ص 395.
- 18- الأغا بن عودة المازري، المصدر السابق، ص 271، وأنظر.
- فتحة الواليش؛ المرجع السابق، ص 48.
- 19- الأغا بن عودة؛ المصدر السابق، ص 271.
- 20- فتحة الواليش؛ المرجع السابق، ص 48.
- 21- يحي بوعزيز؛ مدن تاريخية، وهران، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية للنشر والتوزيع، الرغبة، الجزائر، 1985، ص 22. طالع:
- يحي بوعزيز؛ وهران، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية للنشر والتوزيع، الرغبة، الجزائر، 1985، ص 74-75.
- 22- قلعة بني راشد قلعة عثمانية ذات أصول بربرية مبنية على هضبة بين جبلين، محاطة بأسوار عالية وحصون بها بساتين ذات الثمار والأشجار وتحته فحص طوله 40 ميلا يجري تحته نهري سيرات. أنظر:
- فتحة الواليش؛ المرجع السابق، ص 20-60.
- الحسن الوزان؛ المصدر السابق، ص 27.
- 23- المصدر نفسه؛ ج 2، ص 27 وأنظر:
- مارمول كاريغال؛ المصدر السابق، ج 2، ص 357.
- 24- مارمول كاريغال؛ المصدر نفسه، ج 2، ص 358، 375. وأنظر:
- ناصر الدين سعيدوني؛ دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر، العهد العثماني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص 248، 247.
- 25- ناصر الدين سعدوني؛ المرجع السابق، ص 248.

- 26- عدة بن داهة : المرجع السابق، ص. 54.
- 27- ميروك مهيريس؛ المساجد العثمانية بوهران ومعسكر، معهد العلوم الاجتماعية، جامعة الجزائر، 1981-1982، ص. 25.
- 28- بن عبد القادر مسلم؛ خاتمة أنيس الغريب والمسافر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 194، ص. 31.
- 29- أبو القاسم محمد الحفناوي ؛ تعريف الخلف برجال السلف، مطبعة فونتانا، الجزائر 1907، ص. 33. وأنظر:
- محمد الصالح الصديق؛ أعلام من المغرب العربي، ج1، المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2007، ص. 111.
- 30- الزباني؛ المصدر السابق، ص. 190.
- 31 - أحمد توفيق المدني؛ المرجع السابق، ص. 562.
- 32- فتيحة الواليش؛ المرجع السابق، ص. 23. طالع :
- بلبروات بن عتو ؛ إستراتيجية الباي محمد الكبير في فتح وهران والمرسى الكبير، مجلة الثقافة الإسلامية، العدد 06، وزارة الشؤون الدينية والأوقاف للنشر والتوزيع، حيدرة، الجزائر، ص. 51+52.
- 33- Kehl(Camile) ; Oran et oranie avant l'occupation francai, oran ,p 25-26.
- 34- مسلم بن عبد القادر؛ تاريخ بايات وهران أو خاتمة أنيس الغريب والمسافر، تحقيق وتقديم راج بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر، 1974، ص. 19.
- 35- Bodin (M) ; traditions indigènes sur Mostaganem, itinéraire Historique et légendaire de Mostaganem et de sa région oran .p46.
- 36- مسلم عبد القادر؛ المرجع السابق، ص. 19-20.
- 37- Garrot (Henri) ;Histoire générale de l'algérie , imprimerie Crexenze, Alger,1910,p567 . C.f :
- يعي بوعزيز، المرجع السابق، ص. 99 .
- 38- Bloch(Isaac) ; les Israelites d'oran de 1792 a 1815, paris, Alger,1886,p89 .
- 39- Garrot (Henri) , op. cit, p174-176.
- 40- Garrot (Henri) ;ibid. ;P176.
- 41- الزباني؛ المصدر السابق، ص. 194..
- 42- الزباني؛ المصدر السابق، ص. 194 .
- 43- الزباني؛ المصدر نفسه، ص. 206-207.
- 44- ابن سحنون الراشدي؛ الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تحقيق المهدي البوعبدلي، دار البعث للنشر، ص. 127، 128. وأنظر:

- بلحميسي مولاي؛ الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1975، ص.151
- 45-HOUARI(Chaila) ; Oran Histoire d'une Ville , édition iben Khaldoune, Oran, 2002, pp(61-64)
- *حصن سان فيليب يسمى أيضا برج العيون أو برج بني زروال وهو أبعد الأبراج عن المدينة أما حصن سان أندري فيسمى أيضا بالبرج الجديد بني في عهد الحاكم (كانزانو)سنة1692-1697 لقد لعب دورا كبيرا في هجومي الأتراك سنة 1708و1732.انظر:
- صالح عباد، المرجع السابق،ص305
- 46- أحمد توفيق المدني؛ المرجع السابق، ص. 424-425.
- 47- الراشدي، المصدر السابق، ص 293.وانظر:
- صالح عباد، المرجع السابق،ص305.
- 48- الراشدي؛ المصدر السابق، ص. 276.
- 49- يعي بوعزيز؛ المراسلات الجزائرية الإسبانية في أرشيف التاريخ الوطني بمديرية (1798/1780)، ديوان المطبوعات الجامعية، 1993، ص 148، 149.
- 50 - Léon fey (Henri) ; histoire d'Oran avant, pendant et après la domination espagnol, édition Dar Elgharb, 2002, p 250,251.
- 51- CHAILA(Houari) ; op-at, p 64.